الفصل الثالث والثلاثون

فصل في الخطبة الشقشقية وما شابهها

يعتبر كتاب "نهج البلاغة" من أشهر الكتب الموثوقة المعتمدة لدى الشيعة الإمامية الإثني عشرية، وهو يتضمن خطباً ورسائل وحكماً للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أما علماء أهل السنة فيرون الكتاب كله، أو أكثر ما ورد فيه من كتب ورسائل، موضوعة منحولة ومنسوبة بالباطل لسيدنا علي رضي الله عنه.

غير أن الباحث عن الحقيقة في أمر الخلاف السني الشيعي قد يجد مصلحة في مجاراة الشيعة الإمامية في قولهم بصحة نسبة الكتاب إلى سيدنا علي رضي الله عنه، على سبيل الإفتراض، ومناقشتهم في النصوص التي يستدلون بها منه لإثبات صحة مذهبهم.

وبعد أن بينا في الفصول السابقة من هذه الرسالة أنه لا يوجد في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الشريفة ما يدعم ويثبت أطروحات

الشيعة الإمامية الإثني عشرية، بل يوجد فيها ما يخالفها وينقضها، حان الوقت لبيان آراء سيدنا علي ﷺ من أطروحات الشيعة الإمامية الإثني عشرية.

فإذا وجدنا بعد ذلك نصوصاً أخرى في "نهج البلاغة" تعزز النتائج الواضحة التي وصلنا إليها عند النظر إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، فإن ذلك مما يقوي الحجة الداعية لإعادة النظر في الموروثات وإزالة الخلاف السني الشيعي بالعودة للدليل الصحيح وترك الروايات الكاذبة والخرافات والأوهام.

وإذا وجدنا غير ذلك، ترتب على جميع المجتهد المسلمين من كل المذاهب التفكير في اجتهاد جماعي لمعالجة الموضوع.

الخطبة الشقشقية

من أشهر النصوص التي سمعت علماء الشيعة يستشهدون بها في المناظرات مع علماء السنة، الخطبة الشقشقية، التي تحتوي عبارات صريحة تدل على أن سيدنا عليا ﷺ كان يريد الخلافة ويرى نفسه الأحق بها بعد وفاة رسول الله ﷺ.

هذا نص الخطبة في نهج البلاغة":

"أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَها فُلانٌ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي منهَا مَحَلُّ القُطْبِ مِنَ الرَّحَا، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ، فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً. وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ،

أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ فِيهَا الكَبِيرُ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ!

ترجيح الصبر: "فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى، وَفِي الحَلْقِ شَجًا، أَرَى تُرَاثِي نَهْباً، حَتَّى مَضَى الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ، فَأَدْلَى بِهَا إِلَى فُلَانٍ بَعْدَهُ. ثم تمثل بقول الأعشى:

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ فَيَا عَجَباً!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ـ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا! ـ فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ، يَغْلُظُ كَلْمُهَا، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا، وَيَكْثُرُ العِثَارُ فِيهَا وَالِاعْتِذَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ، فَمُنِيَ النَّاسُ ـ لَعَمْرُ اللهِ ـ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ، حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ، فَيَا لِلَّهِ وَلِلشُّورَى! مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ! لَكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا، فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ، وَمَالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ، مَعَ هَنٍ وَهَنٍ. إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ، نَافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَ الْإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنِ انْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ.

مبايعة علي: "فَمَا رَاعَنِي إِلَّا وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ، يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الغَنَمِ. فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ، وَمَرَقَتْ أُخْرَى، وَقَسَطَ آخَرُونَ: كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا

للَّذينَ لاَ يُريدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)، بَلَى! وَاللّه لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا! أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللّه عَلَى العُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا ، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ!".

قالوا، وهذا كما هو النقل في الكتاب: "وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتاباً (قيل: إن فيه مسائل كان يريد الإجابة عنها) ، فأقبل ينظر فيه، (فلمّا فرغ من قراءته) قال له ابن عباس: يا أميرالمؤمنين، لو اطَّرَدَتْ خُطْبَتُكَ من حيث أفضيتَ! فَقَالَ: هَيْهَاتَ يَابْنَ عَبَّاسٍ! تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ! قال ابن عباس: فوالله ما أسفت على كلام قطّ كأسفي على هذا الكلام ألاّ يكون أميرالمؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد". (انتهت الخطبة)

أقول: كثير من علماء السنة يرفضون نسبة كتاب "نهج البلاغة" للإمام علي رضي الله عنه، ويشككون في هذه الخطبة بالتحديد، ويتهمون أحد رواتها بأنه غير موثوق.

غير أن علماء الشيعة يثقون بالخطبة ويستشهدون بها. ومضمونها واضح، خلاصته أن سيدنا عليا رضي الله عنه كان يرى نفسه الأولى بالخلافة، وأنه كان حزينا لتولي غيره لهذا المنصب، واعتصم بالصبر على ما وصفه بطول المدة وشدة المحنة.

نص في نهج البلاغة عن شكوى علي ﷺ من قريش

وفي "نهج البلاغة" قول آخر منسوب لسيدنا علي ﷺ يعزز مضمون ما جاء في الخطبة السابقة، قاله في التظلم والتشكي من قريش، وهذا نصه:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْش، فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمي، وَأَكْفَأُوا إِنَائي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتي حَقّاً كُنْتُ أَوْلَى به مِنْ غَيْرِي، وَقَالُوا: أَلاَ إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ، فَاصْبِرْ مَغْمُوماً، أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً. فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ ، وَلاَ ذَابٌّ وَلاَ مُسَاعِدٌ، إِلاَّ أَهْلَ بَيْتي، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّة، فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذى، وَجَرِعْتُ رِيقي عَلَى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الغَيْظِ عَلى أَمَرَّ مِنَ العَلْقَمِ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ خَزِّ الشِّفَارِ.

قرأت هذا النص على صديق شيعي من العراق، حامل لدرجة الدكتوراه، يوم ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٩ ، فقال لي إن هذا النص غير موجود في "نهج البلاغة". فلما أريته النص من موقع "نهج البلاغة" في شبكة الإنترنت قال إن مثل هذا النص لا يمكن أن يصدر عن الإمام علي ﷺ لأنه يتناقض مع نصوص أخرى للإمام علي يشيد فيها بقريش وبالصحابة، وتسعون في المائة من الصحابة هم من قريش. وأضاف: أنا في حيرة، هل أصدق هذا النص أم أصدق النصوص الأخرى؟ (كتبت هذه الفقرة بحضوره، وقد أملى علي النص وراجعه وأجازه)

غير أنني أعرض النص كما وجدته، وأضيف نصوصا أخرى تصب في الإتجاه نفسه.

نص في نهج البلاغة يشير فيه عليٌّ رضي الله عنه إلى استئثار قوم بالحكم

هذا جواب من الإمام علي رضي الله عنه لبعض أصحابه وقد سأله: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟ فقال:

يَا أَخَا بَنِي أَسَد. إِنَّكَ لَقَلِقُ الْوَضِين، تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَد، وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ الصِّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَة، وَقَد اسْتَعْلَمْتَ فَاعْلَمْ: أَمَّا الْاسْتِبْدادُ عَلَيْنَا بِهذَا الْمَقامِ وَنَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسَباً، وَالْأَشَدُّونَ بِالرَّسُولِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه- نَوْطاً، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْم، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَالْحَكَمُ اللهُ، وَالْمَعْوَدُ إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ".

نص في نهج البلاغة يفهم منه علم سيدنا علي رضي الله عنه بأمور من الغيب

ووجدت في نهج البلاغة نصوصاً أخرى يذكر فيها الإمام علي رضي الله عنه فضله وفضل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، ومواهب اختص بها من دون الناس، منها قوله:

أَيُّهَا الغَافِلُونَ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُوذُ مِنْهُمْ، مَالِي أَرَاكُمْ عَنِ اللهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِه رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعىً وبِيٍّ، وَمَشْرَب دَوِيٍّ، وَإِنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَة لِلْمُدَى لاَ تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشِبَعَهَا أَمْرَهَا. وَاللهِ

لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ-. أَلَا وَإِنِّي مُفْضِيهِ إِلَى الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَاصْطَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلاَّ صَادِقاً، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو، وَمَآلِ هَذَا الْأَمْرِ، وَمَا أَبْقَى شَيْئاً يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلاَّ أَفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ. أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَاللَّهِ، مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلاَّ وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلاَّ وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا.

وهذا نص آخر في نهج البلاغة ينسب فيه لعلي ﷺ اختصاصه علمه بتبليغ الرسالات وتمام العدات وتمام الكلمات:

"تَاللَّهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ (العِدَات: جمع عِدَة بمعنى الوعد)، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ. وَعِنْدَنَا ـ أَهْلَ الْبَيْتِ ـ أَبْوَابُ الْحِكْمِ وَضِيَاءُ الْأَمْرِ".

نص في نهج البلاغة لعلي ﷺ يذكر فضله ويفهم منه سماعه لأصوات الملائكة

وهذا نص آخر عثرت عليه في "نهج البلاغة" يفهم منه أن سيدنا عليا ﷺ سمع أصوات الملائكة عند وفاة النبي ﷺ. قال:

وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- أَنِّي لَمْ أُرِدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ. وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَكْلَحُ فِيهَا الْأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ الْأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي

اللّٰه بِهَا. وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللّٰه -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْه وَآله- وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي. وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَه -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْه وَآله- وَالْمَلاَئكَةُ أَعْوَاني، فَضَجَّت الدَّارُ والْأَفْنِيَةُ: مَلأٌ يُهْبِطُ، وَمَلأٌ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْه حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحه. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ به مِنِّي حَيّاً وَمَيِّتاً؟ فَانْفُذُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ ، وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَاد عَدُوِّكُمْ. فَوَالَّذي لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَّة الْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّة الْبَاطِل. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللّٰه لِي وَلَكُمْ!

نصان آخران في نهج البلاغة عن فضل أهل البيت

ووجدت في نهج البلاغة هذين النصين للإمام علي ﷺ، عن فضل أهل البيت واختصاصهم بأمور من رسول اللّٰه ﷺ. قال:

"هُمْ مَوْضِعُ سِرِّه، وَلَجَأُ أَمْرِه، وَعَيْبَةُ عِلْمِه، وَمَوْئِلُ حُكْمِه، وَكُهُوفُ كُتُبِه، وَجِبَالُ دِينِه، بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِه، وَأَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِه".

ومنها قوله في أهل البيت أيضا:

"لا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّد صَلَّى عَلَيْه وَ آله مِنْ هذه الْأُمَّة أَحَدٌ، وَلا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْه أَبَداً. هُمْ أَسَاسُ الدِّين، وَعِمَادُ اليَقِين، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الغَالي، وَبِهِمْ يَلْحَقُ التَّالي. وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلايَة، وَفِيهِمُ الوَصِيَّةُ وَالوِرَاثَةُ، الْآنَ إِذْ رَجَعَ الحَقُّ إِلَى أَهْلِه، وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِه".

لعل سيدنا عليا ﷺ يقصد بالوصية في هذا النص الأخير ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم من قول رسول الله ﷺ "أوصيكم الله في أهل بيتي".

والخلاصة من هذه النصوص آنفة الذكر ان سيدنا عليا ﷺ يبدو فيها في حال الشاكي المتذمر، أشد الشكوى وأشد التذمر من قريش، ومن مسلمي عصره، ومن أصحابه في العراق أيضا كما مر بنا في نصوص سابقة.

وربما جاز لأنصار المذهب الإمامي الإثني عشري أن يجدوا في هذه النصوص إشارات قريبة مما يقولون به بأحقية سيدنا علي ﷺ بالخلافة وتصريحه بذلك، ومع ذلك لا يوجد في كل هذه النصوص دليل واحد قاطع يتحدث عن الإمامة الإلهية والعصمة وتوارث الإمامة بالطريقة المعروفة عند الشيعة الإثني عشرية.

ثم إن هذه النصوص يمكن أن يرى فيها البعض إساءة لسيدنا علي رضي الله عنه، إذ تظهره بمظهر الحريص على الحكم والخلافة، وبصورة الإنسان الذي عاش حياته كلها تقريبا كئيبا حزينا بسبب حرمانه من الخلافة أول الأمر. يعبر عن هذه الصورة قوله بالحرف: "فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذى، وَجَرِعْتُ رِيقي عَلَى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الغَيْظِ عَلى أَمَرَّ مِنَ العَلْقَمِ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ خَزِّ الشِّفَارِ".

ويعبر عنها حديثه ﷺ عن قريش بلهجة فيها الشكوى والمرارة، بل إنه يستعدي الله عز وجل عليهم. وهناك نص آخر ينسب له في

"نهج البلاغة" يصب في هذا المعنى، قاله لما مر بطلحة بن عبدالله وعبدالرحمن بن عتاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل:

"لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّد بهذَا الْمَكَان غَرِيباً! أَمَا وَالله لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتْلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاكِبِ! أَدْرَكْتُ وَتْرِي مِنْ بَنِي عَبْد مَنَاف، وَأَفْلَتَتْنِي أَعْيَانُ بَنِي جُمَحَ، لَقَدْ أَتْلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوُقِصُوا دُونَهُ".

ترد هذه النصوص في "نهج البلاغة" وتنسب لسيدنا علي ﷺ مع أن قريشا أهله، وأهل النبي ﷺ، ومعدن العرب. وقد عفا رسول الله ﷺ عن سائر من لم يسلم منهم إلى يوم فتح مكة وقال اذهبوا فأنتم الطلقاء، ووعدهم الله سبحانه وتعالى الحسنى في قوله:

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

(الحديد ١٠)

قال ابن كثير في تفسيره: "وَقَوْله تَعَالَى "لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْل الْفَتْح وَقَاتَلَ " أَيْ لَا يَسْتَوِي هَذَا وَمَنْ لَمْ يَفْعَل كَفِعْلِه وَذَلِكَ أَنَّ قَبْل فَتْح مَكَّة كَانَ الْحَال شَدِيدًا فَلَمْ يَكُنْ يُؤْمِن حِينَئِذ إِلَّا الصِّدِّيقُونَ وَأَمَّا بَعْد الْفَتْح فَإِنَّهُ ظَهَرَ الْإِسْلَام ظُهُورًا عَظِيمًا وَدَخَلَ النَّاس فِي دِين اللَّه أَفْوَاجًا وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى " أُولَئِكَ أَعْظَم دَرَجَة مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْد وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّه الْحُسْنَى " وَالْجُمْهُور عَلَى أَنَّ الْمُرَاد بِالْفَتْحِ هَهُنَا فَتْح مَكَّة".

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: كيف إذن صدرت هذه الأقوال عن سيدنا علي ﷺ وهو أدرى من الجميع بفضل قريش، وفضل الصحابة، وبأن الملك لله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء؟

الجواب يكمن في نصوص أخرى كثيرة لسيدنا علي ﷺ، يزخر بها "نهج البلاغة"، تتوافق كلها مع المشهور من مبادئ الإسلام كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية، وتنقض بشكل واضح جداً ما يمكن أن يفهم من هذه النصوص التي أوردتها في هذا الفصل.

هذا التناقض الذي سيظهر بشكل واضح لا لبس فيه، يؤدي إلى إحدى هذه النتائج:

١ ـ إما أن الكتاب كله موضوع ومنحول ومنسوب زورا وباطلا لسيدنا علي ﷺ.

٢ ـ أو أن النصوص التي تتضمن بيان سيدنا علي ﷺ لفضله ومكانته وشكواه من صرف الخلافة عنه موضوعة ومنحولة ومنسوبة له زورا وباطلا.

٣ ـ أو أن النصوص التي يتحدث فيها عن عدم رغبته في الخلافة، ويشهد فيها للخلفاء الراشدين الذين سبقوه بعمل الحق وصحة بيعتهم، ويثني فيها على الصحابة، وينقض فيها نظرية العصمة، موضوعة ومنحولة ومنسوبة له زورا وباطلا.

وفي كل الأحوال، تصبح حجية كتاب "نهج البلاغة" في الميزان،

وينطبق عليه قول أهل المنطق: إن ما دخل إليه الشك والاحتمال بطل به الاستدلال.

غير أننا جميعا، أي القراء الكرام وكاتب هذه السطور، لسنا على عجلة من أمرنا. لننظر في بقية النصوص التي يتحدث فيها سيدنا علي ﷺ عن عدم رغبته في الخلافة، ويشهد فيها للخلفاء الراشدين الذين سبقوه بعمل الحق وصحة بيعتهم، ويثني فيها على الصحابة، وينقض فيها نظرية العصمة، ثم نحاول عندئذ ترجيح النتيجة الموافقة للدليل والمنطق.

أكتفي في هذا الفصل بإيراد هذا النص من "نهج البلاغة" الذي يخالف قول الشيعة الإمامية بالإمامة الإلهية المنصوص عليها شرعا، تمهيدا لنصوص أخرى أقوى وأوضح أعرضها في الفصلين المقبلين إن شاء الله.

قال علي ﷺ يبيّن سبب طلبه الحكم ويصف الإمام الحقّ

أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظْأَرُكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَةِ الْأَسَدِ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سَرَارَ الْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ. اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلَا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ، وَلَكِنْ لِنَرُدَّ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالصَّلَاةِ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ

نَهْمَتُهُ، وَلاَ الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِه، وَلاَ الْجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِه، وَلاَ الْحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ، وَلاَ الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ، وَلاَ الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ".

والشاهد من هذا النص أنه يتضمن إقرارا واضحا من سيدنا علي ﷺ بأنه لم يقبل بيعته خليفة للمسلمين بناء على نص إلاهي له بالإمامة، أو نص نبوي يأمره بتقلدها، كما يقول الشيعة الإثني عشرية، وإنما للإصلاح وإعلاء شأن الدين وإقامة العدل.

ثم إنه يتحدث بعد ذلك عن بعض الخصال التي يجب أن يبرأ منها خليفة المسلمين، مثل البخل والجهل والظلم والارتشاء وتعطيل السنة. والشاهد من هذا أن الإمامة أو الخلافة، لو كانت محصورة في سيدنا علي ﷺ وفي ذريته بأمر من الله عز وجل لما عاد لحديثه هذا عن مواصفات الحكم المسلم من ضرورة ولا مبرر.

وأقدم المزيد من النصوص التي تعزز هذا المعنى وتعضده بعبارات واضحة لا خلاف عليها في الفصلين المقبلين إن شاء الله تعالى.